ولك أنْ تلحظ المقابلة بين صبَّار وختَّار ، وبين شكور وكفور .

ثم يخاطب الحق سبحانه الناس ، فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

خطاب الحق سبحانه لعباده بيأيها الناس يدل على أنه تعالى يريد أنْ يُسعدهم جميعاً فى الآخرة ، وسبق أنْ ذكرنا الحديث القدسى الذى تقول فيه الأرض : يا رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم . وقالت البحار : نغرقه ... إلخ ، فكان الرد من الخالق عز وجل « دعونى وخلقى ، فلو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] التقوى أنْ تجعل بينك وبين ما يضرك وقاية تقيك وتحميك ؛ لذلك يقول تعالى فى آية

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٥٢/٤) من قول بعض السلف ، ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله للأرض والسماء : كفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدل له حسنات » .

أخرى ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ .. (١٣١) ﴾ [آل عمران] وهما بمعنى واحد ؛ لأن معنى اتقوا الله : اجعلوا بينكم وبين صفات جلال ربكم وانتقامه وجبروته وقاية ، وكذلك فى : اتقوا النار .

فالخطاب هنا عام للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، فالله تعالى يريد أن يُدخلهم جميعاً حيِّز الإيمان والطاعة ، ويريد أنْ يعطيهم ويمنَّ عليهم ويعينهم ، وكأنه سبحانه يقول لهم : لا أريد لكم نِعَم الدنيا فحسب ، إنما أريد أنْ أعطيكم أيضاً نعيم الآخرة .

وكذلك النبى ﷺ ، كان رحيماً حتى بالكافرين والمعاندين له ، كما ذكرنا فى قصة اليهودى الذى اتهموه ظلماً بسرقة درع أحد المسلمين ، وقد عزَّ على المسلمين أنْ يُرمى واحد منهم بالسرقة ، فجعلوها عند اليهودى ، وعرضوا الأمر على سيدنا رسول الله ، فأداره فى رأسه : كيف يتصرف فيه ؟

فأسعفه الله ، وأنزل عليه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ .. (١٠٥) ﴾ [النساء] لا بين المؤمنين فحسب ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء] أى : لا تخاصم لصالح الخائن ، وإنْ كان مسلماً ، فالناس جميعاً سواء أمام مسئولية الإيمان .

وفَرْق بين : اتقوا ربكم واتقوا الله ؛ لأن عطاء الربوبية غير عطاء الألوهية ، عطاء الربوبية إيجاد من عَدَم ، وإمداد من عُدْم ، وتربية للمؤمن وللكافر ، أما عطاء الألوهية فطاعة وعبادة وتنفيذ للأوامر ، فاختار هنا الرب الذى خلق وربَّى ، وكأنه سبحانه يقول للناس جميعاً : من الواجب عليكم أن تجعلوا تقوى الله شكراً لنعمته عليكم ، وإنْ كنتم قد كفرتُم بها .

ولا تنتهى المسألة عند تقوى الرب فى الدنيا ، إنما ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا

لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. (٣٣)﴾ [لقمان] أى : خافوا يوماً تُرجعون فيه إلى ربكم ، وكلمة (يوم) تأتى ظرفاً ، وتأتى اسماً مُتصرِّفاً ، فهى ظرف إذا كان هناك حدث سيحدث فى هذا اليوم كما تقول : خِفْت شدة الملاحظة يوم الامتحان ، فالخوف من الحدث ، لا من اليوم نفسه ، أمَّا لو قلت خفت يوم الامتحان ، فالخوف من كل شىء فى هذا اليوم ، أى من اليوم نفسه .

فالمعنى هنا ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا .. (٣٣)﴾ [لقمان] لأن اليوم نفسه مخيف بصرف النظر عن الجزاء فيه ، وفى هذا اليوم ﴿لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. (٣٣)﴾ [لقمان] خصَّ هنا الوالد والولد ؛ لأنه سبحانه نصح الجميع ، ثم خصَّ الوالدين فى الوصية المعروفة ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٤)﴾ [لقمان]

ثم ذكر حيثيات هذه الوصية وقال ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ .. (١٤)﴾ [لقمان] فجعل لهما فضلاً ومَيْزة ومنزلة عند الله ، حتى أصبحا مظنة النفع حتى يوم القيامة ، فأراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن نفع الوالد لولده ينقطع فى الآخرة ، فكلٌّ منهما مشغول بنفسه ، فلا ينفع الإنسان حتى أقرب الناس إليه .

وفى سورة البقرة : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. (٤٨)﴾ [البقرة] أى : مطلق النفس ، لا مجرد الوالد والولد ، إنما عامة الناس لا ينفع أحد منهم أحداً أيّاً كان .

والآية بهذا اللفظ وردت فى موضعين : اتفقا فى الصدر ، واختلفا فى العَجُز ، وهى تتحدث عن نَفْسين : الأولى هى النفس الجازية أى : التى تتحمل الجزاء ، والأخرى هى النفس المجزيَّة التى تستحق العقوبة .

فالآية التى نظرت إلى النفس المجزىٌ عنها ، جاء عَجُزها ﴿وَلاَ يُقْبَلُ

مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ .. (١٢٣)﴾ [البقرة]

ومعنى : عَدْل أى فدية ، فالنفس المجزىّ عنها أول مرحلة عندها لتدفع عن نفسها العذاب أن تعرض الفدية ، فلا يقبل منها فدية ، لكنها لا تيأس ، بل تبحث عَمَّنْ يشفع لها من أصحاب الجاه والمنزلة يتوسط لها عند الله ، وهذه أيضاً لا تنفع .

أما النفس الجازية ، فأول ما تعرض تعرض الشفاعة ، فإنْ لم تُقبل عرضت العدل والفدية ؛ لذلك جاء عَجُز الآية الأخرى الذى اعتبر النفس الجازية بتقديم الشفاعة على العدل . إذن : ذَيْل الآية الأولى عائد على النفس المجزىّ عنها ، وذيل الآية الثانية يعود على النفس الجازية .

وهنا ﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. (٣٣)﴾ [لقمان] لأن الوالد مظنّة الحنان على الولد ، وحين يرى الوالد ولده يُعذَّب يريد أنْ يفديه ، فقدَّم هنا (الوالد) ثم قال : ﴿ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. (٣٣)﴾ [لقمان] فقدم المولود ، وكان مقتضى الكلام أنْ نقول : ولا يجزى ولد عن والده ، فلماذا عدل عن ولد إلى مولود ؟

الكلام هنا كلام رب ، وفَرْق كبير بين ولد ومولود ؛ لأن المسلمين الأوائل كان لهم آباء ماتوا على الكفر ، فظنوا أن وصية الله بالوالدين تبيح لهم أنْ يجزوا عنهم يوم القيامة ، فأنزل الله هذه الآية تبين لهؤلاء ألاَّ يطمعوا فى أنْ يدفعوا شيئاً عن آبائهم الذين ماتوا على الكفر .

لذلك لم يقل هنا ولد ، إنما مولود ؛ لأن المولود هو المباشر للوالد ، والولد يقال للجد وإنْ علا فهو ولده ، والجد وإنْ علا والده ، فإذا كانت الشفاعة لا تُقبل من المولود لوالده المباشر له ، فهى من

باب أَوْلَى لا تُقْبل للجدِّ ؛ لذلك عَدل عن ولد إلى مولود ، فالمسألة كلام رب حكيم ، لا مجرد رَصْف كلام .

لكن ، متى يجزى الوالد عن الولد ، والمولود عن والده ؟ قالوا : الولد ضعيف بالنسبة لوالده يحتاج منه العطف والرعاية ، فإذا رأى الوالد ولده يتألم سارع إلى أنْ يشفع له ويدفع عنه الألم ، أما الولد فلا يدفع عن أبيه الألم لأنه كبير ، إنما يدفع عنه الإهانة ، فالوالد يشفع فى الإيلام ، والولد يشفع فى الإهانة ، فلكل منهما مقام .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (٣٣) ﴾ [لقمان] عرفنا أن الوعد : إخبار بشىء يسر لم يَأْت وقته ، وضده الوعيد ، وهو إخبار بشىء يؤذى لم يأتِ وقته بعد ، لكن ما فائدة كل منهما ؟

فائدة الوعد أنْ تستعدَّ له ، وتأخذ فى أسبابه ، فهو يشجعك على العمل والسعى الذى يُحقِّق لك هذا الوعد كأنْ تَعد ولدك مثلاً بجائزة إنْ نجح فى الامتحان ، وعلى العكس من ذلك الوعيد ؛ لأنه يُخوِّفك من عاقبته فتحترس ، وتأخذ بأسباب النجاة منه .

إذن : الوعد حق ، وكذلك الوعيد حق ، لكنه خصَّ الوعد لأنه يجلب للنفس ما تحب ، أمَّا الوعيد فقد يمنعها من شهوة تحبها ، ووضحنا هذه المسألة بأن الحق - سبحانه وتعالى - يتكلم فى النعم أن منها نعَم إيجاب ، ونعَم سلب .

واقرأ فى ذلك قول ربك : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فإذا كانت الجنة وما فيها نعماً تستحق الشكر ، ويمتنّ الله بها علينا ، فأىُّ نعمة فى الشواظ والنار والعذاب ؟ قالوا : هى نعمة من حيث هى تحذير وتخويف من العذاب لتبتعد عن أسبابه ، وتنجو منه

قبل أنْ تقع فيه ، نعمة لأن الله لم يأخذنا على غِرَّة ، ونبهنا إلى الخطر قبل أنْ نقع فيه .

ووَعْد الله حقٌّ ؛ لأنه وعد ممَّنْ يملك الوفاء بما وعد ، وإنفاذ ما وعد به ، أما غير الله سبحانه فلا يملك أسباب الوفاء ، فوعده لا يُوصَف بأنه حق ؛ لذلك قال سبحانه في سورة الكهف : ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ** .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

فأنت وإنْ كنتَ صادقاً فيما وعدتَ به إلا أنك لا تضمن البقاء إلى أنْ تفى بما وعدتَ ، فإنْ بقيت فقد تتغير الأسباب فتحول بينك وبين الوفاء ، وأنت لا تملك سبباً واحداً من هذه الأسباب .

إذن : تأدب ودَع الأمر لمَنْ يملك كل أسباب إنفاذ الوعد ، وقُلْ سأفعل كذا إن شاء الله ، حتى إذا لم تنفذ يكون لك حجة فتقول : أردتُ لكن الله لم يشأ .

وكأن ربنا - عز وجل - يريد أنْ يدارى كذبنا ويستره علينا ، يريد ألاَّ يفضحنا به ، وأخرجنا من هذه المسئولية بترك المشيئة له سبحانه ، وكأن قدر الله فى الأشياء صيانة لعبيده من عبيده . لذلك كثيراً ما نقول حينما لا نستطيع الوفاء : هذا قدر الله ، وماذا أفعل أنا ، والأمر لا يُقضى فى الأرض حتى يُقضى فى السماء .

وما دمنا قد آمنا بقدر الله والحكمة منه ، فلا تغضب منى إنْ لم أفِ لك وأنت كذلك ، والعاقل يعلم تماماً حين يقضى أمراً لأحد أن قضاء الأمر جاء معه لا به ، فالقدر قضاء ، ووافق قضاؤه قضاء الله للأمر ، فكأن الله كرَّمه بأنْ يقضى الأمر على يديه ، لذلك قلنا : إن الطبيب المؤمن يقول : جاء الشفاء معى لا بى ، وأن الطبيب يعالج والله يشفى . إذن : لا يُوصَف الوعد بأنه حقٌّ إلا وعد الله عز وجل .

وما دام وعد الله حقاً فعليك أنْ تفعل ما وعدك عليه بالخير وتجتنب ما توعَّدك عليه بشرٍّ ، وألاَّ تغرك الحياة ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .. (٣٣) ﴾ [لقمان] أى : بزينتها وزُخْرفها ، فهى سراب خادع ليس وراءه شيء ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

والحق سبحانه يضرب لنا مثلاً للدنيا ، لا ليُنفِّرنا منها ، وإنما لنحتاط فى الإقبال عليها ، وإلا فحبُّ الحياة أمر مطلوب من حيث هى مجال للعمل للآخرة ومضمار للتسابق إليها .

يقول تعالى فى هذا المثل : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٥) ﴾ [الكهف] فسماها دنيا ، وليس هناك وصف أبلغ فى تحقيرها من أنها دنيا ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ .. (٤٥) ﴾ [الكهف] نعم ، كذلك الدنيا تزدهى ، لكن سرعان ما تزول ، تبدأ ابتداءً مقنعاً مغْرياً ، وتنتهى انتهاءً مؤسفاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾ [لقمان] والغَرور بالفتح الذى يغرُّك فى شيء ما ، والغرور يوضحه لنا الشاعر الجاهلى[1] وهو يخاطب محبوبته فيقول :

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَدلُّلِ ... وإنْ كنت قَدْ أَزْمعت صَرْمى[2] فأَجْمِلى
أغرَّك منى أنَ حبَّكِ قَاتلى ... وأنَّكِ مَهْما تأْمُرى القَلْبَ يفعَلِ

فمعنى غرَّك : أدخل فيك الغرور ، بحيث تُقبل على الأشياء ،

---

(١) هو الشاعر امرؤ القيس ، والأبيات من معلقته التى أولها :

قِفَا نبْكِ منْ ذكرى حبيبٍ ومَنْزِلِ ... بسقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُول فَحَوْمَلِ

(٢) الصرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار ، ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

وتتصرف فيها فى كنف هذا الغرور وعلى ضوئه .

والغَرُور بالفتح هو الشيطان ، وله فى غروره طرق وألوان ، فغرور للطائعين وغرور للعاصين ، فلكل منهما مدخل خاص ، فيغرّ العاصى بالمعصية ، ويوسوس له بأن الله غفور رحيم ، وقد عصا أبوه فغفر الله له . لذلك أحد الصالحين سمع قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) ﴾ [الانفطار] فأجاب هو : غرّنى كرمه ، لأنه خلقنى وسوّانى فى أحسن صورة ، وعاملنى بكرم ودلّلنى ، حتى أصابنى الغرور بذلك ، ولو أنه عز وجل قسا علينا ما اغتررنا .

وكان لأحدهم دَيْن خمسة صاغ فضة عند آخر ، فردّها إليه ، فلما نظر فيها الدائن وجدها ممسوحة فأعادها إليه ، فقال المدين : والله لو كنت كريماً لقبلتها دون أنْ تنظر فيها .

فأخذ الواعظ هذه الواقعة وأراد أنْ يعظ بها الدائن ، وكان يصلى صلاةً لا خشوعَ فيها ، فقال له : إن صلاتك هذه لا تعجبنى ، فهى نَقْر لا خشوع فيها . أرأيت لو أن لك دَيْناً فأعطاك صاحب الدين نقوداً ممسوحة قديمة أكنت تقبلها ؟ فقال الرجل : والله لو كنتُ كريماً أقبلها ولا أردها .

ثم يقول الحق سبحانه مختتماً سورة لقمان :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾

بعد أن حذرنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من الغرور فى الحياة الدنيا يُذكِّرنا أن بعد هذه الحياة حياة أخرى ، وقيامة وساعة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .. (٣٤) ﴾ [لقمان] والساعة لا تعنى القيامة فحسب ، إنما لكل منا ساعته ، لأنه مَنْ مات فقد قامت قيامته .

لماذا ؟ لأنه انقطع عمله ، ولا يمكنه تدارك ما فاته من الإيمان أو العمل الصالح ، فكأن قيامته قامت بموته .

وقلنا : إن عمر الدنيا بالنسبة لك هو مقدار عمرك فيها ، وإنْ كان عمر الدنيا على الحقيقة من لَدُن آدم ـ عليه السلام ـ إلى قيام الساعة ، لكن ماذا استفدتَ أنت من عمر غيرك ؟

إذن : لا ينبغى أن تقول : إن الدنيا طويلة ؛ لأن عمرك فيها قصير ، ثم إنك لا تعلمه ، ولا تستطيع أنْ تتحكم فيه ، وكما أبهم الله الساعة أبهم الأجل ؛ لأن فى إبهامه أنفع البيان ، فلما أبهم الله الأجل جعل النفس البشرية تترقبه فى كل لحظة ، فكل لحظة تمر عليك يمكن أن يأتيك فيها الموت .

وهكذا أشاع الموت فى كل الزمن ، وما دام الأمر كذلك فلا بُدَّ أن ينتبه الإنسان ويخشى أن يموت وهو على معصية ، فالإبهام هنا هو عَيْن البيان .

وقلنا : إن الذين ماتوا من لَدُن آدم عليه السلام يلبثون فى قبورهم طوال هذه المدة ، فإذا ما قامت القيامة ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات] لماذا ؟ قالوا : لأن قياس الزمن إنما يتأتى بالأحداث ، فحيث لا توجد أحداث لا يوجد زمن .

ومثَّلْنا لذلك بأهل الكهف الذين مكثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، ومع ذلك لما سأل بعضهم بعضاً ﴿ كَم لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا

يوماً أو بعض يوم .. ﴿١٩﴾﴾ [الكهف]

لماذا ؟ لأن النوم يخلو من الأحداث ، فلا يشعر النائم فيه بالزمن ، كما أنهم لما رأى بعضهم بعضاً بعد هذه الفترة رآه على حالته التى نام عليها لم يتأثر بمرور هذه المدة ، ولم تتغير هيئته ، فأقصى ما يمكن تصوُّره أن يقول : لبثنا يوماً أو بعض يوم .

وكذلك الحال فى قصة العُزير الذى قال الله عنه : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] ؛ لأن هذه هى أطول مدة يمكن أن ينامها الإنسان .

ثم أخبره ربه ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ .. ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] ويريد الحق سبحانه أن يُدلِّل على صدق الرجل فى قوله يوماً أو بعض يوم ، وعلى صدقه تعالى فى قوله مائة عام ، فيقول سبحانه : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ .. ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] أى : لم يتغير .

وهذا دليل على صدْقه فى يوم أو بعض يوم ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ .. ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة]

وهذا دليل على صدق الحق - تبارك وتعالى - فى قوله ﴿مِائَةَ عَامٍ .. ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] فكلا القولين صادق ؛ لأن الله تعالى هو القابض الباسط ، يقبض الزمن فى حق قوم ، ويبسطه فى حق آخرين .

وهذه الآية جمعتْ خمسة أمور استأثر الله تعالى بعلمها : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان]

فهل هذه هى كل الغيبيات فى الكون ؟ نقول : فى الكون غيبيات

كثيرة لا نعرفها ، فلا بُدَّ أن هذه الخمس هى المسئول عنها ، وجاء الجواب على قدر السؤال ، بالله لو هَبَّتْ الريح ، وحملتْ معها بعض الرمال ، أنعرف أين ذهبت هذه الذرات ؟ وفى أى ناحية ؟ أنعرف ورق الشجر كم تساقط منها ؟

هذه كلها غيبيات لا يعلمها أيضاً إلا الله ، أما نحن فلا نعلم حتى عدد النِّعَم التى أنعم الله بها علينا ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فهذه نماذج لما استأثر الله بعلمه ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ﴾ [لقمان]

فلله تعالى فى كونه أسرار لا تُحصى ، أجَّل الله ميلادها ؛ لنعلم أننا فى كل يوم نجهل ما عند الله ، وكل يوم يطلع علينا العلماء والباحثون بجديد من أسرار الكون ـ هذا ونحن لا نزال فى الدنيا ، فما بالنا فى الآخرة ، وفى الجنة إن شاء الله ؟

وقد أخبر النبى ﷺ عنها فقال : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »(١) .

والإنسان يكتسب المعلومات ، إما برؤية العين ، أو بسماع الأذن ، ومعلوم أن رقعة السمع أوسع من البصر ؛ لأنك لا ترى إلا ما تراه عيناك ، لكنك تسمع لمرائى الآخرين ، ثم أنت تسمع وترى موجوداً ،

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قال الله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . مصداق ذلك فى كتاب الله : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة] أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) ، وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة .

لكن هناك ما لا يخطر على قلب بشر يعنى : أشياء غيبية لم تطرأ على بال أحد ، وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة]

وقد ورد في أسباب نزول مفاتح الغيب هذه ، أن رجلاً من محارب ، اسمه الحارث بن عمرو بن حارثة[1] أتى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله : أريد أنْ أعرف متى الساعة ، وقد بذرْت بذرى ، وأنتظر المطر فمتى ينزل ؟ وامرأتى حامل ، وأريد أن تلد ذكراً ، وقد أعددت لليوم عُدَّته ، فماذا أُعد لغد ؟ وقد عرفت موقع حياتى ، فكيف أعرف موقع مماتى ؟

هذه خمس مسائل مخصوصة جاء بها الجواب من عند الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤) ﴾ [لقمان]

وعجيب أنْ نرى من خَلْق الله مَنْ يحاول أن يستدرك على مقولة الله فى هذه الغيبيات الخمس ، كالذين حاولوا أنْ يتنبأوا بموعد قيام الساعة ، وقد كذبوا جميعاً ، ولو قُدِّر لهم الإيمان بالله ، والعلم بما قاله الله فى قيام الساعة ما تجرأ منهم أحد على هذه المسألة .

وقلنا : إن الحق سبحانه أخفى موعد الساعة لكى نستشعرها دائماً ، وفى كل وقت ، حتى الذين لا يؤمنون بها ويشكُّون فيها ، وإذا ما استشعرها الناس عملوا لها ، واستعدوا لأهوالها ، كما أخفى الله عن الإنسان ساعة موته ومكان أجله ، وجعل الموت يدور على

---

(١) قال الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٨) : « نزلت آية ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .. (٣٤) ﴾ [لقمان] : فى الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة من أهل البادية أتى النبى ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها وقال : إن أرضنا أجدبت ، فمتى ينزل الغيث ، وتركت امرأتى حُبْلَى فماذا تلد ؟ وقد علمت أين ولدت فبأىِّ أرض أموت ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

العباد على غير قاعدة .

فمنهم مَنْ يموت بعد دقائق من مولده ، ومنهم مَنْ يعمر مئات السنين ، كما أنه سبحانه لم يجعل للموت مقدمات من مرض أو غيره ، فكم من مريض يُعافى ، وصحيح يموت ، كما يقولون : كيف مريضكم ؟ قال : سليمنا مات ، وصدق القائل :

فَلا تَحْسَبِ السُّقْمَ كأْسَ الممات وإنْ كَان سُقْماً شَديد الأثَر
فَرُبَّ عليل تَراهُ استْفَاق ورُبَّ سَلِيم تَراه اسْتتر

كذلك الموت لا يرتبط بالسِّن :

كم بُودرت غادة كعَابٌ وغُودِرَتْ أمُّها العَجُوزُ
يجُوزُ أنْ تبطىء المنَايَا والخُلْدُ فى الدَّهْر لا يَجُوزُ

إذن : أخفى الله القيامة وأخفى الموت ؛ لنظل على ذُكْر له نتوقعه فى كل لحظة ، فنعمل له ، ولنتوقع دائماً أننا سنلقى الله ، فنعد للأمر عُدته ؛ لأن مَنْ مات فقد قامت قيامته ؛ لأنه انقطع عمله ، ففى إبهام موعد القيامة وساعة الموت عَيْن البيان لكل منهما ، فالإبهام أشاعه فى كل وقت .

وقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان] وهذا أيضاً ، ومع تقدُّم العلوم حاول البعض التنبؤ به بناء على حسابات دقيقة لسرعة الرياح ودرجة الحرارة .. إلخ ، وربما صَحَّتْ حساباتهم ، لكن فاتهم أن لله أقداراً فى الكون تحدث ولا تدخل فى حساباتهم ، فكثيراً ما نُفَاجأ بتغيُّر درجة الحرارة أو اتجاه الريح ، فتنقلب كل حساباتنا .

لذلك من عجائب الخَلْق أنك كلما اقتربتَ من الشمس وهى مصدر الحرارة تقلُّ درجة الحرارة ، وكلما ابتعدت عنها زادت درجة

الحرارة ، إذن : المسألة ليست روتينية ، إنما هى قدرة لله سبحانه ، والله يجمع لك الأسباب ليثبت لك طلاقة قدرته التى تقول للشىء : كُنْ فيكون .

ألسنا نُؤمر فى الحج بأن نُقبِّل حجراً ونرمى آخر ، وكل منهما إيمان وطاعة ، هذا يُباس[1] وهذا يُداس ، هذا يُقبَّل وهذا يقتبل ، لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد منا الالتزام بأمره ، وانصياع النفس المؤمنة للرب الذى أحيا ، والرب الذى كلَّف .

وقوله تعالى : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ .. (٣٤)﴾ [لقمان] هذه أيضاً من مفاتح الغيب ، وستظل كذلك مهما تقدمت العلوم ، ومهما ادَّعى الخَلْق أنهم يعلمون ما فى الأرحام ، والذى أحدث إشكالاً فى هذه المسألة الآن الأجهزة الحديثة التى استطاعوا بها رؤية الجنين ، وتحديد نوعه أذكر أم أنثى ، فهذه الخطوة العلمية أحدثتْ بلبلة عند بعض الناس ، فتوهموا أن الأطباء يعلمون ما فى الأرحام ، وبناءً عليه ظنوا أن هذه المسألة لم تَعُدْ من مفاتح الغيب التى استأثر الله بها .

ونقول : أنتم بسلطان العلم علمتم ما فى الأرحام بعد أن تكوَّن ووضحتْ معالمه ، واكتملتْ خلْقته ، أما الخالق ـ عز وجل ـ فيعلم ما فى الأرحام قبل أنْ تحمل الأم به ، ألم يُبشِّر الله تعالى نبيه زكريا عليه السلام بولده يحيى قبل أن تحمل فيه أمه ؟ ونحن لا نعلم هذا الغيب بذواتنا ، إنما بما علَّمنا الله ، فالطبيب الذى يُخبرك بنوع الجنين لا يعلم الغيب ، إنما مُعلَّم غيب .

والله ـ تبارك وتعالى ـ يكشف لبعض الخلق بعض الغيبيات ،

---

(١) قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : بوس] : « البَوْس التقبيل ، فارسى معرب ، وقد باسه يبوسه » .

ومن ذلك ما كان من الصِّدِّيق أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ حين أوصى ابنته عائشة ـ رضى الله عنها ـ قبل أن يموت وقال لها : يا عائشة إنما هما أخواك وأختاك ، فتعجبت عائشة حيث لم يكن لها من الإخوة سوى محمد وعبد الرحمن ، ومن الأخوات أسماء ، لكن كان الصِّديق فى هذا الوقت متزوجاً من بنت خارجة ، وكانت حاملاً وبعد موته ولدتْ له بنتاً[1] ، فهل نقول : إن الصِّدِّيق كان يعلم الغيب ؟ لا ، إنما أُعلِم من الله . إذن : الممنوع هنا العلم الذاتى أن تعلم بذاتك .

ثم إن الطبيب يعلم الآن نوع الجنين ، إما من صورة الأشعة أو التحاليل التى يُجريها على عينة من الجنين ، وهذا لا يُعتبر علماً للغيب ، و (الشطارة) أن تجلس المرأة الحامل أمامك وتقول لها : أنت إنْ شاء الله ستلدين كذا أو كذا ، وهذا لا يحدث أبداً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان] الإنسان يعمل ، إما لدنياه ، وإما لأُخْراه ، فالمعنى إما تكسب من الخير المادى لذاتك لتعيش ، وإن كان من مسألة التكليف ، فالنفس إما تعمل الخير أو الشر ، الحسنة أو السيئة ، والإنسان فى حياته عُرضَة للتغيُّر .

لذلك يقال فى الأثر : « يا ابن آدم ، لا تسألنى عن رزق غدٍ ، كما لم أطالبك بعمل غد » .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان] وهذه المسألة حدث فيها إشكال ؛ لأن رسول الله ﷺ أخبر الأنصار

---

(١) هى : أم كلثوم بنت أبى بكر ، أمها حبيبة بنت خارجة بن زيد ، وكانت حاملاً بها عند وفاة أبى بكر وولدت بعده . [ابن سعد فى الطبقات ٣/١٥٥] .

أنه سيموت بالمدينة حينما وزع الغنائم على الناس جميعاً ما عدا الأنصار ؛ لذلك غضبوا ووجدوا فى أنفسهم شيئاً ؛ لأن رسول الله حرمهم ، لكن سيدنا رسول الله جمعهم وتلطَّف معهم فى الحديث واعترف لهم بالفضل فقال : والله لو قلتم أنى جئت مطروداً فآويتمونى فأنتم صادقون ، وفقيراً فأغنيتمونى فأنتم صادقون .. لكن ألا تحبون أن يرجع الناس بالشاة والبعير ، وترجعون أنتم برسول الله »[1] ، وقال فى مناسبة أخرى « المحيا محياكم ، والممات مماتكم »[2] .

إذن : نُبِّىءَ رسول الله أنه سيموت بالمدينة ، والله يقول ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤)﴾ [لقمان] نقول : الأرض منها عام وخاصّ ، فأرض المدينة شىء عام ، نعم سيموت بالمدينة ، لكن فى أىِّ بقعة منها ، وفى أى حجرة من حجرات زوجاته ؟ إذن : إذا علمتَ الأرض العامة ، فإن الأرضَ

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٣٣٠) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : « لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً ، فكأنهم وجدوا إذ لم يُصبهم ما أصاب الناس ، فخطبهم فقال : يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى ؟ كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمَنُّ . قال : ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ ؟ قال : كلما قال شيئاً . قالوا : الله ورسوله أمَنُّ . قال : لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا ، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وتذهبون بالنبى ﷺ إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادى الأنصار وشعبها . الأنصار شعار ، والناس دثار » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٨٠) رواية (٨٦) كتاب الجهاد والسير أنه قال للأنصار فى حديث طويل : « أنا محمد عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم والممات مماتكم » .

الخاصة ما زالت مجهولة لا يعلمها أحد .

يُرْوَى أن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسى كان يحب الحياة ويحرص عليها ، ويخاف الموت ، وكان يستشير فى ذلك المنجِّمين والعرافين ، فأراد الله أنْ يقطع عليه هذه المسألة ، فأراه فى المنام أن يداً تخرج من البحر وتمتد إليه ، وهى مُفرَّجة الأصابع هكذا ، فأمر بإحضار مَنْ يُعبِّر له هذه الرؤيا ، فكان المتفائل منهم ، أو الذى يبغى نفاقه يقول له : هى خمس سنوات وآخرون قالوا : خمسة أشهر ، أو خمسة أيام أو دقائق .

إلى أن انتهى الأمر عند أبى حنيفة رضى الله عنه فقال له : إنما يريد الله أن يقول لك : هى خمسة لا يعلمها إلا الله ، وهى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ** .. (٣٤) ﴾ [لقمان]

وما دامت هذه المسائل كلها مجهولة لا يعلمها أحد ، فمن المناسب أن يكون ختام الآية ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** (٣٤) ﴾ [لقمان]

إذن : الحق سبحانه يريد أنْ يُريح خَلْقه من الفكر فى هذه المسائل الخمس ، وكل ما يجب أن نعلمه أن المقادير تجرى بأمر الله لحكمة أرادها الله ، وأنها إلى أجل مسمى ، وأن العلم بها لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر ، بالله ماذا يحدث لو علمت ميعاد موتك ؟ لا شىء أكثر من أنك ستعيش نَكِداً حزيناً طوال الوقت لا تجد للحياة لذة .

لذلك أخفى الله عنَّا هذه المسألة لنُقبل على الله بثقتنا فى مجريات قدر الله فينا .


سُورَةُ السَّجْدَة